نُصْرَةُ المَظْلُوم

٢٩ يقول رَبُّ العِزَّة سُبْحانه

فى الحديث القُدْسىّ :

« وَعِزَّتِى وجَلالِى لأَنتقِمَنَّ من الظَّالِمِ فى عاجِلِه وآجِلِه ، وَلأَنتقِمنَّ مِمَّنْ رأَى مَظْلوماً فَقدرَ أَنْ يَنصُرَه فلَمْ يَنصُرْه» (١)

يقول الحق سبحانه عن أول ظلم وقع على الأرض بين ابنين من أبناء آدم :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ (٢) بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [المائدة]

---

(١) أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١٠٦٥٢) من حديث ابن عباس ، وأورده الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٦٧) وقال : «رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه من لم أعرفهم .

(٢) باء بذنبه وبإثمه: احتمله . وقيل : اعترف به . وقال ثعلب فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ.. (٢٩)﴾ [المائدة] معناه: إن عزمت على قتلى كان الإثم بك لا بى. (لسان العرب ـ مادة: بوأ)

obeikan.com

فهذا أول تمرُّد على منهج الله وعلى أمره ؛ لذلك قال هابيل: لا تَلُمْنى فأنا لا دَخْلَ لى فى القربان المتقبَّل ، لأن هذا من عند الله ، والله لم يظلمك ، لأن ربنا يتقبَّل من المتقين ، وأنت لَسْتَ بمتقٍّ ؛ لأنك لم تَرْضَ بالحكم الأول فى أن تبتعد البطون[1] .

إذن : فأنت عندك إثْمان :

الإثم الأول : هو رَفْضُك وعدم قبولك حُكْم الله ومنهجه ، وهو الذى من أجله لم يقبل الله قُرْبانك .

والإثم الثانى: هو قَتْلى ، وأنا لا دَخْلَ لى فى هذه المسألة ؛ لأن الظالم لابُدَّ أن يأخذ جزاءه .

وجزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سُعارات[2] الظلم من الظالمين ، لأن الحق سبحانه لو تركها للآخرة لاستشرى الظلم ، ولأصبح الذى لا يؤمن بالآخرة مُحْترِفاً للظلم .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤١): «قال السدى فيما ذكر عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد ومعه جارية ، فكان يزوّج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، حتى ولد له ابنان يقال لهما هابيل وقابيل، وكان قابيل صاحب زرع ، وكان هابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل أكبرهما ، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه وقال: هى أختى ولدت معى وهى أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى».

(٢) السُّعْر : شهوة مع جوع. والسُّعْر والسُّعُر : الجنون . وسُعار العطش : التهابه . والسُّعار : حر النار . (لسان العرب ـ مادة : سعر) والمقصود استشراء شهوة الظلم عند الظالمين .

وقد ضرب لنا الحق سبحانه مَثَل ذلك فى «سورة الكهف» ، حينما ذكر لنا قصة ذى القرنين[1] ، الذى آتاه الله من كل شىء سبباً ، فأتبع سبباً .

وبعد ذلك بيَّن لنا مهمة مَنْ أُوتِى الأسبابَ واتبع الأسباب ، وجعل قضيته فى الأرض لعمارة الكون وصلاحه ، وتأمين المجتمع .

قال تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ[2] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [الكهف]

إذن : فقد خيَّره : إمَّا أنْ تعمل هذا ، وإمَّا أنْ تعمل ذاك .

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ... ﴿٨٧﴾﴾ [الكهف]

ذلك هو القانون الذى يجب أن يسير فى المجتمع ، حتى لا أترك لمن لا يؤمن بإله ، ولا يؤمن بآخرة أن يستشرى فى الظلم ، فليأخذ عقابه فى الدنيا.

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٠٠) أنه كان فى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأنه طاف بالبيت معه أول ما بناه ، وقرب إلى الله قرباناً . وقال على بن أبى طالب عن ذى القرنين : كان عبداً ناصحاً لله فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فسمى ذا القرنين.

(٢) أى: رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لا تفارقه . (ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/ ١٠٢) وهناك قراءتان (حمئة ، حامية). قال ابن جرير الطبرى : «الصواب أنهما قراءتان مشهورتان ، وأيهما قرأ القارئ فهو مصْيب» قال ابن كثير : «ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل ، وحمئة فى ماء وطين أسود » .

يقول تعالى :

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ[1] ذَلِكَ ... (٤٧)﴾ [الطور]

أى : قبل الآخرة لهم عذاب ؛ ولذلك حين يرى الناس مصرع الظالم ، أو ترى الخيبة التى حدثتْ له فَهُمْ يأخذون من ذلك العظَة ، وجيلنا نحن عاصر ظالمين كثيرين نكَّل بعضهم ببعض ، ولو مُكِّنَ الظالمون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض .

فهؤلاء الظالمون لهم عذابٌ أقربُ من عذاب الآخرة ، لأنه لو أُجِّلتْ المسألة كلُّها للآخرة لاستشرى بغْى الظالم الذى لا يؤمن بالحياة الآخرة .

أما مَنْ يؤمن بالآخرة ، فهو مَنْ يحيا بأدب الإيمان فى الكون ، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج ، عكس مَنْ يُعربِد فى الكون ، لذلك لابُدَّ أن يأتىَ العقاب لمن يُعربِّد فى الكون أثناء الحياة الدنيا .

وأراد الحق سبحانه أن يجرى عذابهم أمامنا لتتضح المسألة .

ولقد رفض «ذو لقرنين » أن يأخذ مقابلاً لبناء الرَّدْم[2] ؛ لأن مهمة الأقوياء فى الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية أن يمنعوا الظلم بلا مقابل حتى يعتدل ميزان الحياة ؛ لأن الضعيف قد لا يملك ما يدفعه للقوى .

---

(١) دون هنا بمعنى (قبل) ، كقولك : دون النهر قتال . ودون قتل الأسد أهوال . أى : قبل أن تصل إلى ذلك . (اللسان ـ مادة : دون).

(٢) الردم : السد . والردم : ما يسقط من الجدار إذا انهدم . وكل ما لُفِق بعضه ببعض فقد رُدِم . (اللسان ـ مادة : ردم) قال ابن عباس : أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير (ما مكنى فيه ربى خير) أى: إن الذى أعطانى الله من الملك والتمكين خير لى من الذى تجمعونه .(تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٤)

ولو أن كُلَّ قوى أراد ثَمنًا لِنُصْرة الضعيف لاختلَّ ميزان الكون وطغَى الناس ، ولكنّ الأقوياء فى عالمنا يريدون أنْ يظلموا بقوتهم ، لذلك يختلّ ميزان الكون الذى نعيش فيه .

ولننظر إلى تفويض الله لـ «ذى القرنين» ، وكيف أحسن «ذو القرنين» الحكْم بين الناس ، وأقام العَدْل فيهم ، وكيف ترصَّد الظالمين .

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا[1] ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف]

هكذا أقام «ذو القرنين» العَدْل ، بتعذيب الظالم ، وتكريم المؤمن صاحب العمل الصالح .

فأوّل ما يجب أنْ يهتم به كل مُمكَّن فى الأرض ، بعد توليد الطاقة من الأسباب ، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده .

وفى هذا إصلاح لحركة الحياة فى الدنيا ، أما فى الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيثون[2] فساداً وظُلْماً فى الأرض لا يمكن أن نتركهم لعذاب الآخرة ، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة .

---

(١) نَكُر الشىء فهو نُكْر : اشتد وصَعُبَ ، أو قَبُح واستوحشت منه النفوس .

(٢) العَيْث : الإسراع فى الفساد . عاث الذئب فى الغنم : أفسد . عاث فى ماله : أسرع إنفاقه . (اللسان ـ مادة : عيث) .

ولو تركناهم ولم نضرب على أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً ، والفسادُ في المجتمع لا يصيب المفسدَ فقط ، ولكن يكتوى به المجتمع كله .

إذن : فلا بُدَّ أن نُعجِّل لهم بالعقوبة في الدنيا ، لِنحمِيَ المجتمع من الفساد ، ثم يُعذِّبهم الله في الآخرة ، وهم لم يؤمنوا به سبحانه ، ولم يحسبوا حسابَ لقائه يوم القيامة .

وإنْ لم يُحصَّن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم ووليّ ومُسلَّط ، سنجد كل إنسان وهو يضِنُّ بجهده في الحياة يكتفي بأنْ يصنعَ على قَدْر حاجته ، بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً ، فلا يتحرك في الحياة إلا حركة محدودة ، ولا يعمل إلا بقدْر ما يكفيه فقط .

فإذا ما حدث ذلك فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرون على الحركة الإنتاجية أيَّ فائض ليعيشوا به ، وهذا يُحدِث الفساد والخلَل في حركة الحياة.

والحق سبحانه يأخذ الظالمين درجةً درجةً ، فهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويعطيهم نِعمه ، ثم يرهقهم بما وصلوا إليه ، فإنه سبحانه يُملي للظالم ويُعليه ، ثم يُلقيه من عَلٍ .

يقول تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[1] ﴿٤٤﴾﴾

[الأنعام]

(١) أبلس : حزن ويئس وتحيَّر وسكت غمّاً وهَمّاً ، أو سكت لانقطاع حجته ، وكلها معانٍ متقاربة. والإبلاس: الانكسار والحزن . والإبلاس: القنوط وقطع الرجاء من رحمة الله تعالى. (لسان العرب ـ مادة : بلس) .

أى: لم نُعجِّل بعقاب الظالمين ، بل تركناهم فتمادوا فى المعصية ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد ، فسبحانه يمدُّ ويُملى لهم ليأخذوا وليبنُوا وليترفوا ، وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شىء .

فالحق سبحانه يرفع الظالم إلى درجات عالية ، ثم يخسف به الأرض .

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء نجد الحق سبحانه ينتقم منهم انتقاماً يناسب جُرْمهم ، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية .

لذلك يُوسِّع عليهم فى كل شىء ، حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضَّربة قوية قاصمة ، ويصيبهم اليأس والحسرة .

وربنا سبحانه يعطى الظالمين الكثير ، ويمدُّهم فى طغيانهم ، ثم يأخذهم أَخْذ عزيز مقتدر ، وقد دَلَّتْ وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبَّار فى الأرض والحق يُملى له فى العُلو ويمدُّ له فى هذه الأسباب ، ثم يأخذه أَخْذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

يقول تعالى :

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا[1] فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾ [هود]

(١) الترف : التنعُّم . والمترَفُ : المتنعِّم المتوسِّع فى ملاذِّ الدنيا وشهواتها . (لسان العرب ـ مادة: ترف) . أى: أن الذين ظلموا جروا وراء شهواتهم وتمادوا فى الترف فأبطرهم وأطغاهم .

فالترف الذى عاشوا فيه جاء من الظلم ، وأَخْذ حقوق الناس ، وامتصاص دماء الكادحين ، حتى أطغتْهم النعمة ، وأنستهم المنعم سبحانه ، وقد مدَّ الله لهم فى النعمة .

ويقول تعالى :

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي[1] مَتِينٌ (١٨٣)﴾

[الأعراف]

والإملاء هو الإمهال ، وهو التأخير ، أى : أنه لا يأخذهم مرة واحدة ، فساعة يقوم الظالم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع ، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات .

ونسمع دائماً مَنْ يقول : لو لم يكُنْ هناك إيمان لأكل الناس بعضهم بعضاً ، فالإيمان يعطى الأُسْوة واليقين .

والإملاء للظالم ليس إهمالاً له من المولَى تعالى ، بل هو إمْهال فقط ، ثم يأخذه الله أَخْذ عزيز مُقْتدر .

والحق سبحانه يُوضِّح : إذا كنتُ سأستدرج وسأُملِى ، فاعلم أن كيدى متين .

(١) الكيد من الله تعالى هو إبطال كيد الكائدين ومعاقبتهم على ما دبَّروه من كيد .

والكَيْـد هو المكْر ، والمكر هو أَخْـذهم من حَـيْثُ لا يشعـرون ، وهى عملية خفـيّة تسوء الممكورَ به ، وهو تدبير خـفىّ حتى لا يملك الممكور به مَلكَات الدَّفْع .

وإذا كان البشر يمكرون ويُدبِّرون تدبيراً يَخْفى على بعضهم ، فماذا حين يُدبِّر الله للظالمين مكيدة أو مَكْراً ؟

أيستطيع واحد أنْ يكشفَ من ذلك شيئاً ؟

طبعًا ، لن يستطيع أحدٌ ذلك .

وهكذا أراد الله سبحانه الإمـهال والإمـلاء ليكون لهما مـعنى واضح فى الحياة ، والإملاء للظالم لتزداد مظالمه زيادةً تجعل الأمة التى يعيش فيها تكره ظُلْمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحدٌ .

ولذلك نجد الحق سبحانه حينما يريد أنْ يُعذِّب أحداً يقول :

﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ(١) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور]

(١) قال ابن عباس : الطائفة الرجل فما فوقه . وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٢٦٢) أقوالاً كثيرة فى تحديد عدد من يشهدون إقامة الحد . وقد قال قتادة : أى نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً .

وذلك لِيتمَّ التعذيب أمام المجتمع الذى شَقِى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعتدى على عِرْضه ويرى عذاب المعتدى فهو يُشْفى .

إن عَدْلَ الرحمن هو الذى فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها ، وأن يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا .

إن الذى يجترئ على حقوق الناس يجترئ أيضاً على حقوق الله ؛ ولذلك فمقتضى إيثار الإيمان هو إرضاء الله لا إرضاء الناس .

وفى إنزال العقاب بالمعتدى خضوعٌ لمنهج الله ، وفى رؤية هذا العقاب من قِبَل الآخرين هو نَشْرٌ لفكرة أن المعتدى ينال عقاباً ، ولذلك شَرَع الحق سبحانه العقاب والعلانية فيه ليستقر التوازن فى النفس البشرية .

والحق سبحانه مُنزَّه عن أنْ يُهلكهم بمجاوزة حَدٍّ ، لكن له أنْ يُهلِكهم بعدْلٍ ؛ لأن العدلَ ميزانٌ ، فإن كان الوزْنُ ناقصاً كان الخسران ، ومن العدل العقاب ، وإنْ كان الوزن مستوفياً كان الثواب .

وفى مجالنا البشرى ، لحظة أنْ نأخذَ الظالم بالعقوبة فنحن نتعبه فعلاً ، لكننا نُريح كُلَّ المظلومين ، وهذه هى العدالة فعلاً .

ومن خطأ التقنينات الوضعية البشرية هو ذلك التراخى فى إنفاذ الحقوق فى التقاضى ، فقد تحدثُ الجريمة اليوم ، ولا يصدر الحكم بعقاب المجرم

إلا بعد عَشْر سنوات ، واتساع المسافة بين ارتكاب الجريمة وبين توقيع العقوبة ، وهذا يُضعِف الإحساس ببشاعة الجريمة .

ولذلك حرصَ المشرِّع الإسلامى على ألاَّ تطولَ المسافة الزمنية بين وقوع الجريمة وبين إنزال العقوبة ، فعقاب المجرم فى حُمُوَّة وجود الأثر النفسى عند المجتمع ، يجعل المجتمع راضياً بعقاب المجرم ، ويُذكِّر الجميع ببشاعة ما ارتكب ، ويُوازِن بين الجريمة وعقوبتها .

لذلك ترى أن الناسَ إذا رَأَوا الظالم ثم لم يضربوا على يده ، فإن الله يَعُمَّهم بغضب من عنده ؛ لأن الظالم يتمادَى فى ظُلْمه وطُغْيانه ويُعربد فى الآخرين ، فيستشرى الظلم فى المجتمع ويحقّ على الجميع عقاب الله[1] .

ولذلك نجد أبا بكر رضي الله عنه يبين لنا ذلك، فيقول :

أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .. ﴿١٠٥﴾﴾

[المائدة]

(١) عن أبى بكر رضي الله عنه قال: إنَّا سمعنا النبى ﷺ يقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» أخرجه أبو داود فى سننه (٤٣٢٨) ، والترمذى فى سننه (٢١٦٨، ٣٠٥٧) ، وأحمد فى مسنده (١/ ٧).

وإنكم تضعونها على غَيْر موضعها ، وإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه ، يوشك الله ـ عز وجل ـ أنْ يعمَّهم بعقابه»(١) .

ويُبيِّن لنا رسول الله ﷺ هذا بمثال واضح يتفق عليه الكل ، فيقول ﷺ :

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا(٢) على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوْا من الماء مَرُّوا على مَنْ فوقهم ، فقالوا: لو أنَّا خَرقْنَا خُرْقاً فى نصيبنا ولم نُؤْذِ مَنْ فوقنا ، فإنْ يتركوهم وما أرادوا هلكُوا جميعاً ، وإنْ أخذُوا على أيديهم نجوْا ونجوْا جميعاً»(٣) .

فالرسول ﷺ يضرب لنا المثَلَ بقوم ركبوا سفينة ، وأجْرَوْا فيما بينهم القرعة لينقسموا إلى جماعتين ، جماعة تجلس فى النصف الأعلى من السفينة أىْ على سطحها ، وجماعة تسكُن فى بطن السفينة ، حَسْب ما تأتى به قسمة القُرْعة ، وهى ما يُسمَّى بالاستهام .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢، ٥، ٩)، وابن ماجه فى سننه (٤٠٠٥) من حديث أبى بكر رضي الله عنه .

(٢) استهموا : اقترعوا . أى : أجروا بينهم قرعة .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٩)، والبخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

وهذا يدلُّنا على أنهم أُنَاسٌ طيِّبون ، ولا تُوجد فيهم جماعة قوية تفرض شيئاً على جماعة ضعيفة ، وكان الذين يسكنون أسفل السفينة حين يريدون الماء يصعدون إلى أعلى لينزلوا الأوانى من فوق سطح السفينة إلى النهر .

ولو تُرك الذين فى أسفل السفينة لتنفيذ رغبتهم فى خَرْق السفينة ليأخذوا الماء فى النهر لَغَرقتْ السفينةُ ، لكن إنْ ضرب الذين يعيشون فوق السفينة على يَدِ مَنْ يريدون خَرْقها لَنَجَوْا جميعاً .

إن ما يجعل الناس تتهاون فى التعاون على البرِّ ، ويجترئون على الإثم أنهم لا يجدون من مجتمعاتهم رَادِعاً ، ولو وجدوا الرَّدْع من المجتمع لَحَمى المجتمعُ أفراده من الإثم .

وإنْ صار للمجتمع وَعْىٌ إيمانىٌّ لَقاطعَ المخالفين وأشعرهم بأنهم منبوذون ، وساعة يرى أمثالُ هؤلاء الناس أنهم منبوذون من المجتمع الإيمانى فهُمْ يرجعون إلى المنهج الحق .

فما يُغرى الناس على الجرائم الكبيرة إلا تهاونُ المجتمع فى الجرائم الصغيرة ، ولذلك يلفتنا الحقُّ سبحانه أنه لن يترك الأمر كما تركه بعضٌ من خَلْقه ؛ لأن الخَلْق قد يُجامِلون ، وقد لا يقفون أمام ما يفعله بعضهم من آثام ، لكن الله شديد العقابِ .

سيأتى عقاب الله فى وقت ليس للفرد فيه جاهٌ من مال أو حَسَب أو نَسَب يحميه من الله ، فإنْ أطمعك ضَعْف المجتمع فى أن تظلم وأن تتعاونَ على الإثم ولا تنصر المظلوم ، فعليك أنْ تخافَ الله ، لأن عقابه شديد .

وكيف يأتى عقابُ الله إلى المذنب ؟

لا نعرف ، لأننا لسنا آلهة ، ونجد العقابَ يتسلَّل إلى المذنب فى نفسه كمرض مؤلم لا يصرف الظالم والآثم فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج مَنْ يحب .

وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة ، بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أنْ يعرفها ، وهذه هى شدة العقاب .

وهكذا يكون فَهْمُنَا لقَوْل الحقِّ تبارك وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال]

ولسائل أنْ يسألَ ويقول : إن العقاب يقع هنا على الظالم والمظلوم ، والظالم هو الذى يستحق العقاب على ما وقع منه من ظُلْم ، ولكن ما ذَنْب المظلوم ؟

والجواب : أن المظلوم قد كان فى مُكْنته أنْ يردَّ الظلم ، لكنه سكت عن ذلك ، فاستحق أنْ يشمله العقاب .

وإنْ لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الظلم والظالمين ، أنزل الله بها العقاب ، وعقاب الحقِّ تبارك وتعالى أشدُّ من عقاب الخلق .

يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)﴾ [الأنفال]

أى: أن الله أَقْوى من كل ما تصنعون فى كَوْنه ، وعقابُه تعالى شديد وأليم ، بسبب ذنوبهم ، وما دام الحق ـ تبارك وتعالى ـ قد توعَّدهم بعقاب شديد ، فهذا دليلٌ على شِدَّة ظُلْمهم .

ويقول تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾

[هود]

والأَخْذ هنا عقابٌ على العمل ، بدليل أنه أنْجى شُعَيْباً عليه السلام ، وأخذ قومه بسبب ظُلْمهم ، فالذات الإنسانية بريئة ، ولكن الفعل هو الذى يستحقّ العقاب .

فَأَخْذُ الله لهم كان بسبب ما ارتكبوه من ظُلْم وإفساد فى الأرض ، والإنسانُ حين يجد سُوءاً يُحيط به ، وعذاباً أليماً يأتيه فهو يُحاول أنْ يفرَّ منه .

ولكن الحق سبحانه يقول :

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢)﴾ [القمر]

أى : أن قدرة الله تعالى تُمسِك الظالم مسْكة مُحْكمة ، فلا يستطيع فِرَاراً أو هروباً .

وكلمة «مُقْتدِر» تناسب شدة الأَخْذ .

وكلمة «عزيز» تعنى أنه آمن من أنه لن يأتى أحدٌ يغلبه ، فالله حين يأخذ أحداً يأخذه أَخْذ عزيز لا يُغْلَب .

وهذا الأَخْذ من الله ليس بَطْشاً أو جبروتاً ، ولكنه أخذهم بذنوبهم ، لأنه سبحانه عادلٌ ومُنَزَّهٌ عن الظلم .

ولذلك يقول تعالى :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

ونعلم أن العقاب لا يعُمُّ الناس إلا بِقَدْر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً ، ولكن لِكُلٍّ جزاؤه على قَدْر ذنبه .

وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ؛ لأن العقاب من الله إنما يحدث بقدرات الله .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة]

والأَخْذ دائماً يتناسب مع قوة الآخذ ، فلو جذبكَ طفل فلن يُؤثِّر فيك ، لكن لو جذبكَ شابٌّ قويٌّ سيُوقِعك على الأرض ، فما بالُكَ بأَخْذ الله القوى العزيز ؟

إنه أَخْذ عزيزٍ مُقْتدِر .

ويقول الحق سبحانه :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ[1] وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]

فالمؤمنون أُخرِجوا من ديارهم بغير ذنب أو جريمة ارتكبوها ، وكان ذنبهم هو قولهم «ربنا الله» ، فكأن هذا ذنبٌ يستحقون عليه الإخراج من الدِّيارِ والتشْريد .

وهذه ليستْ أوَّلَ سابقة فى التاريخ يتعرَّض لها أتباعُ الحق ، بل سبقهم أقوام كثيرون مثل أصحاب الأخدود[2] الذين قال القرآن عنهم :

---

(١) الصوامع : المعابد الصغار للرهبان . قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما .
البيع : هى أوسع من الصوامع وأكثر عابدين فيها وهى للنصارى أيضاً .
الصلوات : كنائس اليهود . وفى قول أنها كنائس النصارى . وفى قول آخر أنها معابد للصابئين . (راجع : تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٦) .

(٢) الأخدود : الشق المستطيل فى الأرض . وأصحاب الأخدود : هم قوم شقوا أخدوداً فى الأرض وأضرموا فيه النار وألقوا المؤمنين فيه وأحرقوهم ؛ لأنهم لم يقبلوا الرجوع عن إيمانهم بالله تعالى .

﴿وَمَا نَقَمُوا[1] مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج]

ومثل آل لوط الذين أخرجهم قومهم من قريتهم لأنهم كانوا مؤمنين طاهرين، وهم أنجاس مناكيد[2] كافرون معاندون .

قال تعالى :

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل]

فهم نَقَموا من شيء كان يجب أنْ يمدحُوه ، لأن الإيمانَ يُسوِّى حركة المجتمع ، فلا يجعل أحداً يسرق من أحد ، أو يعتدى على أحد ، أو يظلم أحداً ، أو يعتدى على ماله أو عِرْضه ، أو حتى يذكُره بسُوء .

فهذا شيءٌ كان يجب أنْ يُحبّوه ويُشجِّعوه ، ولكنهم فَسدتْ طباعهم ، فجعلوا المحبوب مكروهاً ، وانصرفوا عَمَّا كان يجب أنْ يُقبِلوا عليه .

وذلك لأنهم كانوا ممَّنْ لا يؤمنون بيوم القيامة ، وأن هناك بَعْثاً وحساباً وثواباً وعقاباً ؛ لذلك تجدهم يُعربِدُون فى الكون ويُفسِدون فيه .

والوَيْل للناس مِمَّنْ لا يؤمن بيوم القيامة ، لأنه سيستشرى فساده ويُسرِف على نفسه فى المعاصى والمظالم ، فالذى لا يؤمن بالآخرة لن يأتىَ منه خَيْر ، وسيظلّ يُفسِد فى الأرض ، ويُعربِد فى المجتمع .

---

(١) انتقم الشيء ونقم الشيء : أنكره . والنِّقمة : الإنكار . (لسان العرب ـ مادة : نقم) .

(٢) النَّكَد : الشؤم واللؤم . وكل شيء جَرَّ على صاحبه شراً فهو نكَد . والنُّكْد والنَّكُد: قلة العطاء. (لسان العرب ـ مادة : نكد) .

فجعل الله لهم عقاباً فى الدنيا قبل الآخرة حتى يحمى الله المجتمعَ من شُرورهم ، فالذى لا يؤمن ولا يخشى عذابَ الله فى الآخرة يخاف مِمَّا قد يناله من عقاب الدنيا .

ولذلك يقولون : لا يموتُ ظالم فى الدنيا حتى ينتقمَ الله منه ، ومن تمام انتقام الله من الظالم أنْ يرى هذا الانتقام مَنْ ظلمهم هذا الظالم حتى يَشْفِى نفسه منه .

ولذلك لما قيل : إن بالشام ظالماً مات ولم ينتقم الله منه ، قال مَنْ سمع هذا الكلام قال : أنا لا أكذبها ، ولكن غير معقول أنْ يموتَ ظَلُوم قبل أن ينتقم الله منه ، فلابُدَّ أنه انتقم منه ، ولكن الناس لم يعرفوا هذا الانتقام .

وهذا يدلُّنا على أن وراء هذه الدار داراً ، يُعاقَبُ فيها المسىء بإساءته ، وإلاَّ فلا يمكن أنْ يترك اللهُ الظالمَ دون عقابٍ .

وقد مدح اللّه تعالى المخبتين ، وقال :

﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) ﴾ [الحج]

والمخبت هو المتواضع المنكسر الخاشع لكُلِّ أمر من أوامر اللّه ، لأن الذى لا يكون مُخْبِتًا يكون مُتمرِّدًا مُتفرعِنًا كأنه لم يشهد خالقه .

فالإنسان يتمرَّد ويتعالى حينما يجد نفسه أكبر من الذين حوله ، فلو أنه استحضر جلال ربِّه لَخشع وتواضع ، ولكنه غافلٌ عن العظمة الإلهية ، فلا يرى إلا نفسه .

ولذلك يقولون : الإخباتُ نوعان :

ـ إخباتٌ للّه من خشوع وخضوع وطاعة لأوامر اللّه .

ـ وإخبات لِخَلْق اللّه ، بحيث إذا ظلمه أحدٌ لا ينتقم منه ، لأنه يعلم أنه إذا ظُلِم من مخلوق تعصَّب له الخالق .

انظر إلى أبنائك ، إذا ظلم أحدهم الآخر ، قلبُك سيكون مع المظلوم ، فتُقرِّبه منك وتُراضيه ، وتأخذ له حَقَّه وتعطيه ما يطلبه وتسترضيه ، حتى أن أخاه يغارُ منه ويتمنَّى أنْ يكونَ هو الذى حدثَ له ذلك حتى يُقرِّبه أبوه ويعطف عليه .

كذلك الخَلْق كلهم عيالُ اللّه ، وأحبُّهم إليه أرحمهم بعباده .

فالمخبِتُ حين يظلمه أحد يُفوِّض أمره إلى اللّه وهو مُطَّلِع على كل شىء ، كما أن العبد إذا رَدَّ على الظلم سيردُّ بقوته الضعيفة ، لكن لو تركها لقوة اللّه سيكون الردُّ مُناسِبًا لقوته سبحانه .

وأحيانا يقع الظلم على إنسان ، ويكون هو قد ظلم غيره من قبل .

ورب العزة سبحانه يقولُ فى الحديث القدسى :

« يابْنَ آدم دعوتَ على مَنْ ظلمك ، ودعا عليك مَنْ ظلمته ، فإنْ شئتَ أجبْنَاك وأجبْنَا عليك ، وإنْ شئت أخَّرْتكُما إلى الآخرة فيسعْكُما عَفوى » (١) .

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٣/ ١٨٣) من قول يزيد بن ميسرة أنه قال: إن ظللت تدعو على من ظلمك، فإن الله تعالى يقول: إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

فالمخبت لا يصدر منه ظُلْم لأحد ، وإن ظلمه أحدٌ يتركه للّه ، لأنه يعلم أن اللّه سيكون معه .

ولذلك قُلْنا سابقًا : لو علم الظالم مَا أعدَّه اللّه للمظلوم من الكرامة لَضَن عليه بالظُّلْم .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ(١) وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]

اعلم أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون هَيِّنًا لَيِّنًا مع إخوانه من المؤمنين ، فإنْ عَزَّ عليه أخوه المؤمن فَلْيَهن له ، فإنْ تعالى أو تعالَم أخٌ مسلمٌ عليك ، فلاَ تَتعالَ عليه أو تتعالم حتى لا تقوم معركةٌ بينكما ، بل تواضع أنت ، ليزيدك اللّه رِفْعة وعِزَّة .

وكأن اللّه سبحانه وتعالى يؤكد لك : إنك حين تعطى العفو تأخذ الخير من خلاله ، فالظالم بظلمه يجعل اللّه فى جانب المظلوم ، ولذلك يحتاج الظالم إلى أنْ نُحسن إليه حيثُ كان سببًا فى رعاية اللّه لنا ، فنفعل معه مثلما فعل سيدنا حسن البصرى(٢) عندما قيل له:

---

(١) العرف : المعروف الذى تعارف الناس عليه وعرفوا أنه حسن .

(٢) هو: الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد ، تابعى كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة فى زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء والشجعان النساك ، ولد بالمدينة ٢١ هـ وشب فى كنف على بن أبى طالب ﷺ، سكن البصرة ، وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم ، توفى بالبصرة عام ١١٠ هـ عن ٩٠ عاماً .

إنَّ فلانا اغتابك بالأمس .

ونادى سيدنا حسن البصرى الخادم وقال له : جاءنا طبق من باكورة الرطب . اذهب به إلى فلان ـ وحدَّد للخادم اسم مَنْ اغتابه ـ وتعجَّب الخادم : كيف تبعث بالرطب إليه ، وهو قد اغتابك ؟

فقال: أفلا أُحسِن إلى مَنْ جعل اللّه بجانبى . قُلْ له : يقول لك سيدى بَلَغَهُ أنك قد اغتبْته ، فأهديْتَ إليه حسناتك ، وهو أهداكَ رُطَبه [1] .

وهذه درجة راقية من العمليات والانفعالات الشعورية ، فالعمليات الشعورية التى تنتابُ الإنسان فى التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد فى النفس تدفع إلى النزوع .

والعملية النزوعية هى رَدُّ الفعل لما تُدرِكه ، فإنْ آذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك ، فأنت تبذل جهداً لتكظم الغيظ ، أى : أن تحبس الغيظ على شدة ، فالغيظ يكون موجوداً ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط .

وعلى المغتاظ أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقى الغيظ فى القلب .

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٣/ ١٥٤) أن رجلاً قال للحسن: إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ،فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

هذه مرحلة أولى ، تتبعها مرحلة ثانية ، هى :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ.. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فإذا كان المطلوب فى المرحلة الأولى منْع العمل النُّزوعى ، فالأَرْقى من ذلك أنْ تعفو ، والعفو هو أن تُخرِج المسألة التى تغيظك من قلبك ، وإنْ كنتَ تطلب مرحلة أَرْقى من كَظْم الغيظ والعفو فأحسن إليه ، لأن مَنْ يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيمانيًا.

إنه يحتاج منَّا إلى كَظْم الغيظ ، أو العفو كدرجة أَرْقى ، أو الإحسان إليه كمرحلة أكثر عُلُواً فى الارتقاء.

إذن : فالحقُّ سبحانه وتعالى يبيح أن تردَّ الاعتداء بالمثل ، ثم يُفسِح المجال لكظْم الغيظ فلا نعتدى ، ولكن يظل السبب فى القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى العفو ، وأن نُخرجَ المسألة من قلوبنا ، ثم يرتقى ارتقاءً آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

ومَنْ فينا لا يرغب فى حُبِّ الله له؟

وقد يتساءل إنسان : كيف تطلب منِّى أن أُحسن إلى مَنْ أساء إلىّ ؟

والرد: أنت وهو لَسْتما بمعزل عن القيوم سبحانه ، فهو قيوم ولا تأخذه سِنَة ولا نوم ، وكل شىء مرئى له سبحانه ، وكلاكما صنعة الله ، وعندما يرى

الله واحداً من صنعته يعتدى عليك أو ليسىء إليك ، فسبحانه يكون معك ويُجيرك ، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدى عليه.

إذن : فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه فى جانبك ، وتكون تلك الإساءة فى جوهرها هدية لك.

وعندما نتأمل المسألة نجد أن الذى عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم وثأر لنفسه ؛ لأنه إن انْتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، أما حين يعفو فإنه يجعل المسألة لله ، وقدرته سبحانه غير محدودة إنْ أراد أنْ يردَّ عليه.

وقد يردّ الحق سبحنه بأن يُرضى المعتَدى عليه بعطاء غير محدود.

هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العافى المحسن، وهو السميع العليم بكل شىء .

* * *